HNSJ
Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

المُصطلحات النقدية في الأدب المغربي القديم

"التشوف، إلى رجال التصوف " لابن الزيات التادلي، نموذجا

د. بلال داوود[1]

[1] أستاذ مكون بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين (المغرب)

تاريخ الاستلام: 2020/10/07م تاريخ النشر: 2020/11/01م

المستخلص

يسعى هذا المقال إلى تحديد المُصطلحات النقدية المتضمنة في كتاب التشوف لابن الزيات، وتأصيلها وتجذيرها في ثقافتنا المغربية المعاصرة. وهنا يأتي التحدي، فالكتاب لا يعود لأحد أعلام الدراسات النقدية أو البلاغية، بل يعود لابن الزيات التادلي، صاحب كتاب "نهاية المقامات، في دراية المقامات."

الكلمات المفتاحية: أدب- بلاغة- النص الصوفي- المصطلحات النقدية- "التشوف، إلى رجال التصوف ".

RESEARCH ARTICLE

CRITICAL TERMS IN ANCIENT MOROCCAN LITERATURE
"Tashuf, To Rijal Al-Sufism," by Ibn Al-Zayat Al-Tadli as a model

Dr. Bilal Daoud[1]

[1] Professor at the Regional Center for the Professions of Education and Training (Morocco)
Email: Bilaldaoud61@gmail.com

Received at 07/10/2020 **Published at 01/11/2020**

Abstract

This article seeks to define the critical terminology contained in the book of the Tashuf by Ibn al-Zayat, and to root and root them in our contemporary Moroccan culture. Here comes the challenge. The book does not belong to one of the distinguished scholars of critical or rhetorical studies. Rather, it belongs to Ibn al-Zayat al-Tadli, author of the book "The End of Maqamat, Fi Darayat al-Maqamat".

Key Words: literature - rhetoric - mystic text - critical terms - "tashuf, to men of mysticism."

مقدمة:

إن المكتبة المغربية تزخر بجواهر ثمينة تستحق الحفاوة والتنقيب، تكتنز في طياتها رصيدا اصطلاحيا نقديا مهما، له حمولته المعرفية ومفهوميته المشتركة. لكن في ظل انفتاح العالم العربي على مختلف الحضارات الغربية والشرقية، أصبحت تنهال عليه من كل حدب وصوب، علوم ومعارف شتى، كانت نتيجتها الحتمية، التشتت والتباين، واللبس والغموض في جل مصطلحاتنا النقدية.

لذا كان من الواجب علينا أن نُحصل ونَدرس المصطلحات النقدية الأصلية الواردة فيها، ونحدد مدلولاتها، أملا في تطوير عمل معجمي شامل، يتناول المؤلفين السابقين كلهم والعصور جميعها، والظفر بلغة اصطلاحية مشتركة تحقق التواصل الصحيح بين الناقد والقارئ، فمن المعلوم أن المصطلح لا يتشكل من لغة عادية، وإنما من لغة علمية مشحونة بمفاهيم أدبية مضبوطة، واصفة للنص الأدبي تسمى "ما وراء اللغة"، أي ما يقوله النص من غير تصريح. نتحدث إذن عن "فكرة التأويل"، أو "الهيرمونطيقا". وهي لغة تمتلك قدرة كبيرة على التجريد الذهني، لأنها تتجاوز الإطار اللفظي والمعجمي، وتزحزحه إلى دلالات جديدة، وعوالم فريدة، لم تُكتشف بعد.

ومن مزايا هذا المقال، التحديد الدقيق لتلك المصطلحات، وتأصيلها وتجذيرها في ثقافتنا المغربية المُعاصرة. وذلك في نطاق مدونة واحدة هي "التشوف، إلى رجال التصوف" لابن الزيات التادلي. وهنا يأتي التحدي، فالكتاب لا يعود لأحد أعلام الدراسات النقدية أو البلاغية، بل يعود لابن الزيات التادلي، صاحب كتاب "نهاية المقامات، في دراية المقامات".

في ثنايا المتن المدروس (التشوف إلى رجال التصوف)، وصاحبه (ابن الزيات التادلي):

(قال الحضرمي: هو الشيخ الفقيه القاضي الأديب مؤلف كتاب "التشوف، إلى رجال التصوف" وله تأليف في صلحاء المغرب، لم يدخل الأندلس، صحب أبا العباس السبتي ولقي ابن حوط الله والسلاقي، وشرح مقامات الحريري شرحا نبيلا جدا...)([1]).

فالتعريف يُوهمنا بأن المؤلف ليس له ثبات واستقرار في كتاباته الأدبية، فهو يتشتت بين المشيخة والفقه والقضاء والأدب وغيره، ومنه نجد صعوبة التحدث عن تصور شامل ومفاهيم خاصة بالمؤلف، تؤهلنا لاكتشاف كنه تلك اللغة الأدبية الواصفة المستعملة في كتاب "التشوف".

وفي هذا، يقول الدكتور محمد مفتاح: "وتحديد الكتابة الصوفية أنها تهدف إلى تكوين إنسان كامل، بطرق خاصة، في سياق معين، والكتابة كما هو معلوم، جنس تدخل تحته أنواع متعددة، مثل الكتابة الفقهية، والكتابة الكلامية، والكتابة الشعرية، والكتابة النحوية... فالكتابة الصوفية إذن جزء من كل، تشترك مع هذا الكل في وسيلة التعبير، وهي اللغة الطبيعية (اللغة العربية)"([2]).

والحقيقة المغيبة، هو كون ابن الزيات كانت حياته خاضعة لمنطق التحول والتغير حسب المستويات الثقافية، وما يقطعه الفكر من مراحل على درجات سلم التدرج والترقي (فقه، تصوف، أدب)، وما تبلغه المجتمعات من تقدم وتطور في الحس الحضاري، أو عكسه من تقهقر وهزيمة، حيث يقول الناصري في كتاب الاستقصا :(وفي سنة سبع عشرة وستمائة، كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب. وفيها الف الفقيه ابو يعقوب، يوسف

[1] التشوف، ص: 7- 8، ونقلا عن "كفاية المحتاج، بما ليس في الديباج"، مخطوطة الخزانة الحسنية رقم: 681، ص: 306.

[2] دينامية النص، ص: 129.

بن يحيى التادلي المراكشي، الذي عرف بابن الزيات كتابه المسمى بـ "التشوف، إلى رجال التصوف")([3]).

فكتاب "التشوف"، حاول مؤلفه أن يخلص المجتمع الموحدي من أزمته، وذلك استنادا إلى روايات مناقبية تدل جميعها على فكرة البعث من جديد، وتجديد القوى الروحية، أي ميلاد جديد للإنسان، فابن الزيات كانت له نظرة في التحول، فكان يروم إلغاء المجتمع القديم كلية وتدشين مجتمع جديد.

"فهناك من يرى أن الكرامة لم تكن سوى أداة للنقد، استعملها التيار الصوفي لتمرير خطابه الإصلاحي، وذلك لما للكرامة من خصائص تتيح الغرض المنوط به، ومن هذه الخصائص ما تتيحه الكرامة من قدرة على التمويه. إذ هي بمنزلة خطاب مستور وملتو يضمن للصوفية السلامة من أي اضطهاد. كما أنها وسيلة تمكن الصوفية من توجيه خطابهم إلى المجتمع دونما حاجة إلى مقارعة السلطة بالقوة، وفوق كل هذا فإن علاقة الكرامة بالدين يعني ارتباطها بالمقدس الذي يكفل لها القبول لدى العامة والخاصة..."([4]).

هذا كله، حتى لا يظن القارئ وهو يتصفح كرامات الأولياء ومناقبهم، أن الرجل كان ساذجا بسيطا ينقل ما يسمع بكل عفوية، وأن يعلم لمؤلفه تلك المكانة العلمية المرموقة التي وصل إليها وهو يحاور نصوصه، والتي تتجلى كما سنرى في معيرته وانتقائه للأخبار التي نقلها، وتوظيفه لاصطلاحات نقدية في مؤلفه "التشوف".

ولندع الآن، مؤلف كتاب "التشوف"، يعرفنا بالكتاب موضوع اشتغالنا بنفسه. يذكر ابن الزيات: "... ولما خفي عن كثير علم، من كان بحضرة مراكش، من الصالحين ومن قمها من أكابر الفضلاء، رأيت أن أفرغ لذلك وقتا، أجمع فيه طائفة، أدون أخبارهم، وأضيف إلى ذلك، من كان من أعمالها وما اتصل بها من أهل هذه العدوة الدنيا. وربما ذكرت من قدم مراكش وما اتصل بها، وإن كان من غيرها، إذا كان مماته بها، وذكرت من هو من أهل هذه العدوة، وإن كان مماته بغيرها، وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة والخير والصلاح. والمستورين ما استطعت. وربما ذكرت بإسنادي ما نقلته من ذلك، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة. فاعتمدت على أصحها سندا، وأقربها إلى الصواب لفظا، ونبهت عند ذكر كل رجل ذكرته، على مقامه المعلوم له. وسميت هذا الكتاب "بالتشوف، إلى رجال التصوف" وإن كان مشتملا على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء، والعباد والزهاد والورعين، وغير ذلك من ضروب أهل الفضل ..."([5]).

ويسترسل ابن الزيات كلامه فيقول: "... وصدرت هذا "المجموع" بسبعة أبواب، لازمة هي كالمدخل إليه:

الباب الأول: في صفة الأولياء.

الباب الثاني: في حفظ قلوبهم وترك النكير عليهم.

الباب الثالث: في محبتهم.

الباب الرابع: في زيارتهم ومجالسهم.

الباب الخامس: في حسن الثناء ووضع القبول لهم في الأرض.

الباب السادس: في إثبات أحوالهم.

الباب السابع: في إثبات كرامتهم ويشتمل على جملة فصول([6]).

---

[3] التشوف، ص: 14.

[4] عجائبية النثر الحكائي، ص: 128.

[5] التشوف، ص: 33- 34.

[6] التشوف، ص: 43.

ومقدمة ابن الزيات هذه، تعتبر في غاية الأهمية، حيث تطرق فيها الكاتب لأهم عنصر بنيوي مكون لأدبيات مشروعية السرد الأسطوري الكرامي المعهود في التراب المنقبي المغربي القديم، وهو الاستدلال المألوف بكلام المتكلمين الأشاعرة في تجويز الكرامات، والذي نجده بكثرة في الباب السابع من الكتاب "التشوف". فالكتاب إذن كتاب تاريخ وسيرة في أصله، حيث يقول مؤلفه:

"وجردت هذا الكتاب من علوم التصوف، واقتصرت على إيراد أخبار الرجال. فإن إحياء علوم الدين، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي رضي الله عنه، هو المنتهى في ذلك، وقد ذكرت من فضائل الإحياء في أثناء ذكر الرجال الأكابر، ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ..."([7]).

"... على أن الكتابة الصوفية أنواع متعددة، منها كتب طبقات الصوفية، والشعر التعليمي الصوفي، والرجز الصوفي، والشعر الذي قيل في غرض التصوف، والكتب التعليمية الصوفية، والمؤلف الصوفي الذي يجمع بين دفتيه غالب أنواع الثقافة العربية، وكأنه من كتب الأدب العام.

ومعنى هذا، أن ليس هناك كتابة صوفية صرفة، إذ منها ما يشترك مع التاريخ، ومنها ما يتداخل مع الشعر، ومنها ما يظن القارئ غير المطلع أنه كتاب للأدب. وهكذا فالتداخل يقع كثيرا بين نوعين أدبيين أو أنواع ضمن مؤلف واحد ..."([8]).

من هذا المنطلق، فنحن بصدد التعامل مع نص تاريخي محض، أي نص أسطوري محض، ومعلوم أنه "في البدء كانت الأسطورة، بل كانت قبل العلم والتاريخ. بل من الأسطورة كان التاريخ، ولاشك عندنا في أن المسطر، أي كاتب الأساطير ومقيدها وحاكيها، هو المؤرخ. بل كثيرا ما يكون المؤرخ مسطرا، والمسطر مؤرخا([9]).

نماذج من المادة الاصطلاحية النقدية المتضمنة في المتن المدروس:

إن "المناقب ليست نصوصا أدبية فقط، وإنما هي تقع على الحافة، بين ما هو تاريخي وما هو أدبي وما هو مقدس، فهو نص لغوي سردي ذو صبغة أدبية، من جهة، وضرب من الاعتقاد الديني من جهة، وتاريخ سيري اجتماعي من جهة أخرى، ولكن يمكن القول، إن انتماءها إلى المقدس هو أقوى هذه الانتماءات. فهو الأصل الذي من أجله حاز النص صفة الكرامة، وهو الذي حقق لنص المنقبة تميزه عن باقي النصوص([10]). وهذا التاريخ الأسطوري ظهر بتلاوين عدة ابتداء بسلوك، ومرورا بعلم، وانتهاء بأدب ونقد في العصر الحديث.

بناء على ما سبق، شرعنا في رصد معالم معجم نقدي مستعمل وموظف في كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات التادلي، مستفيدا من دراسة أستاذي الدكتور جعفر ابن الحاج السلمي[11]، والذي عمد من خلالها إلى اكتشاف مجموعة من الأشياء، في خصوص "أخبار أبي العباس السبتي"، من حيث هي نصوص أدبية([12]). وقد جاءت على النحو الآتي:

إن كل المادة الاصطلاحية النقدية فيه، ترتد إلى أربعة أشياء:

---

[7] نفسه، ص: 36.

[8] دينامية النص، ص: 130.

[9] فصول، ص: 123.

[10] عجائبية النثر الحكائي، ص: 135.

[11] أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان(المغرب).

[12] فصول، ص: 92. كما نُشر في مجلة المناهل ع 39. س 1411هـ/1990م، ص: 195- 210.

ا- معجم واصف للنص الأدبي.

ب- معجم واصف للمتلقي في علاقته في النص.

ت- معجم واصف لعملية تحمل النص وروايته.

ث- معجم واصف لعملية التقييد.

ننتقل الآن لتقديم أمثلة المصطلحات النقدية المكتنزة في ثنايا المتن المدروس، حسب كل معجم:

أ- معجم واصف للنص الأدبي:

التشوف والاستشراف

أول مصطلح نصادفه عنوان الكتاب نفسه، "التشوف غلى رجال التصوف"، حيث يذكر ابن الزيات :"... وسميت هذا الكتاب بالتشوف، إلى رجال التصوف، وإن كان مشتملا على أضراب من أفاضل العلماء والفقهاء، والعباد والزهاد والورعين، وغير ذلك من ضروب أهل الفضل"([13]).

وفي لسان العرب نجد: تشوف إلى شيء: أي تطلعت، وتشوف الشيء، وأشاف: ارتفع([14])، وفي حديث سبيعة، أنها تشوفت إلى الخطاب، أي طمحت وتشرفت([15]).

إن التشوف إذن، تطلع نفساني إلى الأعلى. أي أن الكتاب يخاطب أصحاب المعارج، فابن الزيات التادلي يوجه كتابه إلى متلق ذو خصائص معينة، عليه أن يطوي مسافات ذهنية كبيرة ليستشرف النص الزياتي، وفي (لسان العرب): "وتشوف الشيء واستشرفه: وضع يده على حاجبه، كالذي يستظل من الشمس، حتى يبصره ويستبينه... والاستشراف: أن تضع يدك على حاجبك وتنظر([16]).

فالنص إذن، ليس مجموعة لغوية مبذولة للواقف بذلا مجانيا. بل هو شيء سام يتشرف (الواقف) بالارتفاع إليه. مستنبطا معانيه، ومفسرا معجمه وألفاظه، وهو بذلك يرتفع إلى تلك العليوية العرفانية التي تحتويها تلك النصوص، ويتذوق المكونات الجمالية الكامنة فيها. وهذا الجهد الجهيد الذي يقوم به "الواقف"، هو الذي يعطي للنص الزياتي تميزه وفرادته لأن "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف"([17]).

(الاستشراف) إذن، مرحلة أبعد من تلك التي على المتلقي أن يقطعها ليصل إلى (الإخبار)، بما هو استبصار واستبانه ونظر. لذلك، فإن فضله العظيم، ينحصر في ابن الزيات وحده، لأن نصه هو الوحيد الذي يكفي الواقف المتشوف المستشرف. قال ابن الزيات :"وأخباره كثيرة وعجيبة. وقد جمعها أصحابه، وكتبوا من كلامه كثيرا. وفي هذا القدر الذي ذكرته، كفاية لمن أراد أن يستشرفها"([18]).

إن الذي يتشوف إلى رجال التصوف وأخبارهم، ثم يستشرفها، هو وبلا شك، متلق ذو خصائص معينة.

---

[13] التشوف: 34.

[14] لسان العرب: 185/9.

[15] نفسه، ص: 186/9.

[16] نفسه، ص: 171/9.

[17] أسرار البلاغة: 139.

[18] التشوف: 470.

وإذا كان ابن الزيات لم يفصح عن طبيعته، فإنه سماه "الواقف"([19]).

الواقف

في "لسان العرب" نجد: "وإذا وقفت رجلا على كلمة، قلت: وقفته توقيفا"([20]).

و"الواقف خادم البيعة، لأنه وقف نفسه على خدمتها"([21]).

يقول ابن الزيات :"أما بعد، فإني لما شرعت في تأليف أخبار صالحي المغرب، الذين جمعتهم في كتابي الموسوم بـ "التشوف، إلى رجال التصوف"، أشار علي جملة من الفضلاء، أن أذكر فيهم الشيخ الفقيه الصالح، أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، المعروف بالسبتي، فتوقفت في ذلك، إذ لا يكفي في ذكره الاختصار، لما وقع فيه من الاختلاف، فرأيت أن أفرد ذكره وأبسط أخباره، حتى يعلم من ذلك الواقف بذلك على مجموع عيون أخباره حقيقة أمره. وبالجملة، فإن شأنه من عجائب الزمان، وإنما أثبت من أخباره ما ينوب عن العيان..."([22]).

إن المتلقي عند ابن الزيات، هو إذن متلق من نوع خاص. إنه غير محايد، بل هو رجل مرتبط بتشوفه واستشرافه بالأخبار، ارتباط خادم البيعة بالبيعة. إن علاقة مقدسة ما، تربط بينهما، لأجل أنه متلقي متصوف مريد، لا مراد، في هيكل النص. هو مريد يرتفع إلى النص، "ليقضي به العجب"([23]).

وقد سمى ابن الزيات نفسه "واقفا"، إذ يقول "فتوقفت في ذلك"، وهي صيغة مبالغة للفعل "وقف"، كيف لا، والمتوقف له أو "المبسوط" هو أبي العباس السبتي، رجل "يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه"([24]). فإن الزيات يتوقف من جراء المرور من سرد الأحداث إلى الوصف، "معتمدا على الانتقاء والمعيرة".

ثم إن "كرامة الأولياء، ليست مكرا إلا لمن وقف عندها، بل هي من إكرام الله لعباده الأولياء، وأن الغالب وقوعها بغير اختيار منهم لفائدة دينية، من تربية أو بشارة أو نذارة، ولا يجوز إظهارها لغير فائدة"([25]).

فابن الزيات يقدم للمتشوف "الواقف المريد" مذهب أهل الحقيقة، فالشريعة عبادة بدنية، والطريقة عبادة قلبية، والحقيقية عبادة روحية، وفيها الفناء الذي يقضى بها على العجب، ثم إن النظر بإمعان عند "الواقف" حسب اصطلاح ابن الزيات، يحيلنا إلى القول بأن الواقف رجل له مقصد ورغبة وميل ونزعة. والتي لا يمكن معرفة كنهها إلا بالوقوف على مصادرها الأصلية. فالواقف محبوس بين مقامين هما الظاهر "في حال التعجب والإنكار" والباطن "في حال التسليم والتصديق". وهذا هو المقصد من غبانتها وإظهارها.

ب- معجم واصف للمتلقي في علاقته في النص.

لقد استثمر ابن الزيات مصطلح علم الحديث، وتوسع فيه، في سعيه لإقناع "الواقف"، بحقيقة نصوص الأخبار، كي يضع فيها كل ثقته، بل إن مصطلحات مثل: (أخبر، مشهور، قال، حدث، سأل، وقف، سمع، أنشد،

---

19 نفسه، ص: 451.

20 لسان العرب، ص: 9/ 35.

21 نفسه، ص: 9/ 359.

22 التشوف: 451.

23 نفسه، ص: 451.

24 نفسه، ص: 451.

25 عمدة الراوين، ص: 4/ 28.

صحيح، حضر...) صارت لها وظائف عميقة، حيث صارت تشكل في بناء نص الخبر، أمارات على ابتدائه، وعبور من المادي إلى الروحي، ومن ثم إمكانية العبور من المعنوي أو الروحي إلى المادي المحسوس. فابن الزيات قام بتحطيم الفاصل بين الذات والموضوع لكي تحيى العلاقة التأثرية بينهما. وقد أخذ هذه الأخبار عما يزيد عن خمسين من الرواة بلفظ "سمعت فلانا" و"حدثني فلانا" وربما قال :"كتب إلي بذلك فلان"([26]).

يقول الدكتور محمد مفتاح :"... فكذلك كتب الطبقات الصوفية، فهي تعتمد على السند وهي تحمصه، ثم تقبل منه ما لا يحدث تفرقة وبدعة في الدين، فابن الزيات يقول بصدد مصادره :"وتحريت في نقل ذلك عن أهل الثقة والأمانة، والخير والصلاح والمستورين ما استطعت، وربما ذكرت بإسنادي ما ذكرته من ذلك، وربما سمعت الخبر من عدة طرق بألفاظ كثيرة، فاعتمدت على أصحها سندا وأقربها إلى الصواب لفظا"([27]).

"... على أن كتب الطبقات الصوفية تظهر إستراتيجيتها واضحة للعيان لوضوح استدلالاتها إذ تعتمد على القرآن والحديث ورؤية النبي في المنام، وإتباع سلف الصوفية، والنقل عن "الثقة" واختيار "أصح" الأسانيد ومشاهدات المؤلف وإقحام المؤلف نفسه بقوله "حدثنا"، وهو إقحام يفيد مزيد تأكيد على "الحقيقة"، ونوعا من البرهان عليها ولا يطعن فيها"([28]).

من خلال ما تقدم، أمكننا القول بأن ابن الزيات قام بغربلة نصوصه، فهو كثيرا ما يستعمل صيغا تفيد احتياطه الشديد، مثل: "أخبرني مخبر، وأخبرني غير واحد، وحدثوا عنهم، حدثني الثقة..." لإقامة الحجة على شرعية ما كان ينقل، وحتى لا يقال إنه اقتصر في النقل فقط عن أصهاره وأتباعه وأقربائه، والذي يؤدون في الغالب إلى التنافس في الخلق والتزيد بغية الطريقة وكسب الأتباع.

وكثيرا ما يضيف ابن الزيات، بعد إيراد كرامة من الكرامات، تعليقا يؤكد صحة الخبر: "وهذه القصة مشهورة صحيحة"([29]). "حدثني بهذه القصة وقال لي إنها صحيحة"([30]). كما كان الرجل صريحا في ذكر مصادره، وإثبات أسماء مخبريه، ومشغولا بالتأكد من صدقهم وأمانتهم. فالكرامات ينبغي أن تنتشر "بألسنة الثقات" و"بنقل أرباب المسانيد" وتصح عندما ينقلها راو "متحقق فيما رواه محقق".

فلا يبدأ النص الزياتي بقضاء العجب مباشرة ولكن التمهيد له بأصح الأسانيد لا تشكل خرقا لنظام المألوف، من أجل أن يقبل "التشوف" على أنه جزء من الواقع نفسه، منقولا بالتواتر.

يقول ابن الزيات:

للصالحين مناقب مأثـــورة   يجلو مآثرها الطريق الأوفق

شاعت بالسنة الثقات وكلهم   متحقق فيما رواه محقق([31])

---

[26] التشوف، ص: 13.

[27] دينامية النص: 131.

[28] نفسه، ص: 132.

[29] التشوف، ص: 477.

[30] نفسه، ص: 274.

[31] نفسه، ص: 113.

ب- معجم واصف لعملية التقييد:

الاختصار:

إن عملية "الاختصار" مثل عملية "الذكر"، تستلزم موضوعا أو مختصرا، والمختصر هنا، هو "من كان بحضرة مراكش من الصالحين"، ولما كان المختصر يتحدث عن مذكور إشكالي خفي، فإن عملية الذكر، تستلزم بالضرورة، اصطلاحات اسمية ووصفية للخروج من حالة الخفاء والانقطاع، إلى التجلي والاتصال. يقول ابن الزيات: "... وأخبار أبي يغزى كثيرة عجيبة. اختصرت منها هذا القدر الذي أوردته في هذا الكتاب"([32]).

والرأي الذي لا مرية فيه، هو أن ابن الزيات استعمل لغة الاختصار في كتاب "التشوف"، لكنه استثنى هذه القاعدة "الاختصار" عندما أورد "أخبار أبي العباس السبتي" إذ يقول :"أما بعد فإني لما شرعت في تأليف أخبار صالحي المغرب الذين جمعتهم في كتابي الموسوم بت "التشوف، إلى رجال التصوف"، أشار على جملة من الفضلاء أن أذكر فيهم الشيخ الفقيه الصالح أبا العباس أحمد بن جعفر الخزرجي، المعروف بالسبتي، فتوقفت في ذلك، إذ لا يكفي في ذكره الاختصار، لما وقع فيه من الاختلاف..."([33]).

وفي هذا السياق وظف ابن الزيات المصطلحات الآتية:

("التشوف، غلى رجال التصوف – أفرغ لذلك وقتا – أجمع فيه طائفة – أدون أخبارهم – وتحريت في نقل ذلك – وربما ذكرت بإسنادي – وربما سمعت الخبر – فاعتمدت على أصحها سندا – أقربها إلى الصواب لفظا – نبهت – سميت هذا الكتاب – مشتملا على أضراب – حقيقة اشتقاقه – جملة – وجردت هذا الكتاب – اقتصرت على إيراد أخبار الرجال – عجائب أخبارهم – ومراعي الفضل قريبة – وقد شرعت في تصنيف هذا الكتاب – عجائب الكرامات – وأخبرني عنه تلاميذه – وبذلك جاء الخبر – هذا هو الحق الذي لا خفاء به – وصدرت هذا المجموع بسبعة أبواب").

هذا هو المعجم الواصف للنص الأدبي، بل إن عنوان الكتاب ليس إلا بيانا لخفاء، ووصولا لانقطاع، وتشوفا بالذكر الذي هو منشور الولاية إلى المذكور الذي هو مقر العناية، ومقام الولاية، ولتبدأ من هنا.

ومظاهر "الاختصار" عند ابن الزيات كثيرة، نلمس البعض منها في قوله: "إنما ذكرت من الكرامات ما ورد الصحابة"([34]). "وإنما ذكرت المشهور المنقول"([35]). "وهذا أوان الشروع فيما اعتمدته من ذكر عباد الله الصالحين وإمائه"([36]). "فوجه الخبر والله أعلم"([37]). "وقد نسبت كل خبر منها إلى مخرجها"([38]). "وقرأت في بعض أخباره"([39]). "وهذا الباب واسع ولو تتبعته بالاستقصاء لخرجت عن مقصد الكتاب"([40]).

---

[32] نفسه، ص: 222.

[33] نفسه، ص: 451.

[34] نفسه، ص: 56.

[35] نفسه، ص: 56.

[36] نفسه، ص: 83.

[37] نفسه، ص: 53.

[38] نفسه، ص: 56.

[39] نفسه، ص: 116.

[40] نفسه، ص: 83.

فابن الزيات عندما يحصر فهو يختصر، وكما هو معلوم عند القوم، فالإشارة تُغني عن العبارة.

ت- معجم واصف للنص الأدبي:

الخبر

إن عنوان الكتاب يحيل لشيء مهم(التشوف، إلى رجال التصوف)، وهو التعدد الداخلي للنص الزياتي، في دائرة وحدته طبعا. إن الأمر لا يتعلق بخبر رجل مفرد، طويل أو قصير، بل يتعلق بمجموعة من الرجال وأخبارهم. وفي "لسان العرب" :"والخبر بالتحريك، واحد الأخبار. (كان الأصل هو الأخبار، لا الخبر) والخبر: ما أتاك من نبا عمن تستخبر ابن سيدة: الخبر" النبأ([41]).

والمعنى اللغوي يحيل في علاقته بالسارد أو الكاتب في عملية الكتابة أو الذكر. إنه ينفي كل تدخل من الكاتب، في الظاهر على الأقل في الصياغة بالزيادة والنقصان، والخيال والتخيل، ويعرض مادة يفترض إنها سردية وقصيرة، ونثرية وواقعية أو حقيقية.

ولما كان الخبر عند البلاغيين، هو ما احتمل في ذاته الصدق والكذب، وكان احتمال ورود الكذب في الخبر بشقيه، الخلقي والخيالي قويا، فإن ابن الزيات التادلي لا ينسى، وهو يكشف ما استطاع من كان خفيا بحضرة مراكش، أن يسأل الله المعونة على ما فيه رضاه والعصمة من الزلل في القول والعمل، وأن يجعل عمله وقوله خالصا لوجهه الكريم، إذ يقول في مقدمة الكتاب :"والله سبحانه المسؤول والمأمول في المعونة على ما فيه رضاه، والعصمة من الزلل في القول والعمل، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه سميع مجيب، وهو حسبي ونعم الوكيل"([42]). وفي خاتمة الكتاب يقول :"قد أتيت بحمد الله تعالى، على ما انتهى إلي من ذكر عباد الله وإمائه الصالحين، نفعنا الله بمحبتهم، وحشرنا في زمرتهم، وقد أذنت لمن وقف فيه على وهم أو غلط أن يصلحه، فإني قد تحريت في نقل ما اثبته، وما أبرئ نفسي من سهو وغفلة، وأرغب إلى الله أن يجعل ما اعتمدته من ذلك خالصا لوجهه الكريم ...."([43]).

وقد ورد مصطلح "الخبر" عند ابن الزيات في صور شتى نذكر منها:

("وقد نسيت كل خبر منها إلى مخرجها". "أهملت اخبارهم وجهلت آثارهم". "أدون أخبارهم". "وربما سمعت الخبر من طرق بألفاظ كثيرة", "واقتصرت على إيراد أخبار الرجال". "إذ المقصود إيراد عجائب أخبارهم. "وأما أمواتهم فمعنا في الأخبار معناهم". "وأخبرني عنه تلاميذه بعجائب الكرامات". "إعلم أن الإنسان ينكر ما لم يحط به خبرا". "وفي هذا الخبر بيان كلام الملك مع من ليس بنبي". "فوجه الخبر والله أعلم". "وأخباره كثيرة ويكفي منها ما أوردته". "... وبذلك جاء الخبر عن سيد البشر". "ففي هذا الخبر كلام بيان الملك مع من ليس بنبي". "فوجه الخبر والله أعلم". "وقد نسبت كل خبر منها غلى مخرجها". "وقرأت في بعض أخباره". "وأخبار ابي يعزى كثيرة عجيبة").

إن الخبر عند ابن الزيات التادلي ليس معنى لغويا وبلاغيا فقط، بل هو تصور معين لنسق من العناصر السردية، تميز بينه وبين القصة، وهو ما يعطي لكلتا الكلمتين بعدا اصطلاحيا خاصا، يجوز أن نؤطره، ونحن نبحث عن ملامح نظرية مغربية للأجناس الأدبية.

---

[41] لسان العرب، ص: 277/4.

[42] التشوف، ص: 83.

[43] نفسه، ص: 449- 450.

إن الخبر إذن نص سردي، قد يطول وقد يقصر، وقد يحتوي على عقدة، ويتلعب به قانون الظاهر والباطن.

القصة

قال ابن منظور: "والقصة: الخبر، وهو القصص. وقص علي خبره يقصه قصا وقصصا: أورده. والقصص: الخبر المقصوص، بالفتح، وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه. والقصص بكسر القاف: جمع القصة التي تكتب. والقصة: الأمر والحديث، والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها".

وأصل القصص عند العرب تتبع الأثر، فالعالم بالآثار يسير وراء من يريد معرفة خبره، وتتبع اثره، حتى ينتهي إلى موضعه الذي حل فيه.

فلنتأمل النصوص الزياتية الآتية، لينجلي أمامنا تصور ابن الزيات للقصة:

1- "ومنهم أبو تونارت ولجوط ابن ومريل الأيلاني من أهل رباط (تاسماطت) من عمالة مراكش وكان من أهل الفقه والفضل. حدثوا عنه أنه كان يصلي العشاء الآخرة بجامع (تامساطت) ويبيت بمكة. فسمع بذلك من كان ينكر ذلك. فصلى معه ليلة العشاء الآخرة وجاء إلى الباب الجوفي الذي عند الصومعة واتبعه. فالتفت غليه أبو تونارت، فقال له: اركب معي أيها الشاك! فإذا هو بداية بيضاء كأنها ناقة باركة عند الباب. فركب وركب الرجل خلفه. فسارت بهم إلى ان (وصل إلى مكة) فحطتهم. فعاد أبو تانارت إلى المغرب وأقام ذلك الرجل بالمشرق ولم يرجع إلى أن توفي ابو تانارت. رحمه الله. فوصل إلى (تاسماطت) حينئذ. وكثيرا ما حدث الناس بهذه القصة"([44]).

2- "ومنهم أبو إبراهيم إسماعيل ابن (وجماتن) الرجراجي: سمعت سليمان بن أبي نور الرجراجي يقول: سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن ياسين يقول: حضرت يوم جمعة في الجامع. فلما صلينا قام أبو إبراهيم فقال: أتريدون أن أعظكم؟ فسكتوا إلى أن قالها ثلاثا والناس سكوت والعامل حاضر. فتكلم في حق العامل بكلام خاف منه الناس على أنفسهم. فخرجوا من المسجد كلهم وخرج العامل من المسجد، (فجلس على قرب منه فخرج أبو إبراهيم من المسجد ومر على العامل) فقيل له: هذا هو الذي تكلم في المسجد بما سمعته. فقال: احملوه إلى السجن وقيدوه واجعلوه في مطمورة عميقة. ففعلوا ما امرهم به العامل وأمر الكاتب أن يكتب فيه كتابا إلى حضرة مراكش. فلما لبث غير ساعة حتى أبصر أبا إبراهيم ماشيا وهو يقول بصوت جهير (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) فغضب العامل وقال: ما أظنكم فعلتم الذي أمرتكم به! وقام بنفسه وحمله إلى السجن وجعل على رجليه كبلين ودلاه بالحبل في حفرة وجعل عليه لوحا وأمر رجالا أن يجلسوا عليه. فلما قعد الكاتب بين يديه يكتب الكاتب في شأنه إلى مراكش أبصر أبا إبراهيم مارا عليه وهو يصيح ويقول (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله!) فطأطا العامل رأسه وتستر بالجالسين حوله إلى أن جاز عنه. فمزق الكتاب وتغافل عن أمره ولم يتعرض له بعد ذلك بشيء. وهذه القصة مشهورة، سمعتها من غير ما طريق من غير واحد وهي وإن اختلفت ألفاظ روايتها ترجع إلى معنى

[44] نفسه، ص: 164- 165.

واحد، وبالجملة فشأن أبي إبراهيم من أعجب العجائب"([45]).

3- "وحدثني غير واحد أن أبا إسحاق الخزار المؤدن استدعى أبا عبد الله للمبيت عنده في جماعة فيهم الفقيه ابو يحيى أبو بكر بن خلف الأنصاري المعروف بالمواق وأبو عبد الله بن البقار واستعار أبو إسحاق لحافا من بعض أصهاره وكان في زمان البرد الشديد. فلما اصبحوا جعل اللحاف على حائط ووضع النساء مجمر النار قريبا منه. فسقط بعض اللحاف على النار واحترق بعضه. فاغتنم أبو إسحاق لذلك واعلم به أبا عبد الله. فقال له: جئني به لنظر في إصلاحه. فأتاه به وحمله. ثم اتاه أبو إسحاق فدفع إليه اللحاف، فنظره فلم يجد فيه أثر الحرق ولا أثر الإصلاح. قال أبو إسحاق: فتعجبت أنا ومن عندي من الأهل من ذلك ولولا معرفتنا باللحاف لقلنا بدل بغيره.

وحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بهذه القصة قال لي: حدثني بها أبو إسحاق الخراز. وسمعت ابا القاسم أحمد بن عيسى الأنصاري قال: سالت عنها الشيخ الفقيه أبا العباس أحمد بن محمد الليثين فحدثني بهذه القصة وقال لي إنها صحيحة"([46]).

ويقول ابن الزيات في قصة أخرى:

4- وحدثني محمد بن جلداسن بن عزوز بن ابي فحص قال: حدثني أبي، جلداسن قال: حدثني ابي عزوز أن رجلا من قوم أبي حفص جاءه في عام مجاعة وهو يحفر في الأرض. فقال له الرجل: هذه زكاة مالي قد خصصتك بها. فإذا على سرجه عيبة مملوءة دراهم. فتغير وجه أبي حفص حين رأى ذلك فقال له: أردت أن أخذ منك ما أحاسب عليه. ولو أردت أن تكون داري هذه فضة لكانت! فنظر الرجل إلى جدرانها وقد انقلبت فضة ثم قبض في التراب الذي كان يحفره فإذا هو قد انقلب ذهبا. فانصرف الرجل عنه مرعوبا فمرض شهرين فكان أهله يعودونه ويسألونه عن سبب مرضه فيحدثهم بما شاهده من أبي حفص. وحدثني غير واحد عن أشياخه بهذه القصة([47]).

هذه إذن، بعض النماذج التي وسم بها ابن الزيات نصوصه بـ"القصص" ، فبماذا تتميز إذن القصة عن الخبر؟

كما نلاحظ، أن القصص المبسوطة، قد جمعت كل مكونات القصة النموذجية من: "البطل، الزمان، المكان، المساعد، الحبكة، الحوار، الصراع، المونولوج، الشخصيات، الرموز، الخيال، المنكر، التأويل، موضوع، مبسوط، الأسلوب واللغة..."،فالحكاية الصوفية قصة قد تكاملت أركانها السردية، وذلك ما تم اكتشافه والوصول إليه بعد فحص هيكلية بنائها السردي ومكوناتها وصيغها ووظائفها في النصوص الست السابقة. غير أن الحكاية تعتمد بالإضافة لعناصر القصة، على الخيال وتعدد الشخصيات وعدم محدودية المكان والزمان. ومنها الأساطير وهي روح كتب المناقب، المعبرة عن تطلعاتها وأحلامها وتعكس صورة عن طموحاتها وأمانيها. الحكاية بهذا المعنى عبارة عن وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكي بقواعد الفن الدقيقة. فالقصص الزياتية تصور حادثة غريبة من حوادث الحياة أو عدة حوادث مترابطة، إذ يتعمق ابن الزيات في تقصيها والنظر إليها من

[45] نفسه، ص: 356- 355.

[46] نفسه، ص: 274.

[47] نفسه، ص: 142.

جوانب متعددة، ليكسبها قيمة إنسانية خاصة مع الارتباط بزمانها ومكانها وتسلسل الفكرة فيها، وعرض ما يتخللها من صراع مادي أو نفسي، وما يكتنفها من مصاعب وعقبات، على أن يكون ذلك بطريقة عجائبية تنتهي إلى غاية معينة(المغزى).

وأحيانا يجنح ابن الزيات إلى حَبك نصوصه في شكل "مقامة"، فسبق له أن شرح مقامات الحريري، بشرح سماه :"نهاية المقامات في دراية المقامات" والذي شهد له صاحب القاموس بقوله :"إمام في اللغة والنحو والأدب، له شرح المقامات الحريرية سماه: نهاية المقامات في دراية المقامات وهو أحسن الشروح". فعلو كعب ابن الزيات في العربية مكنه من وضع هذا "الشرح النبيل" لمقامات الحريري، كما أثمر لديه قدرة أهلته لتولي القضاء.

والمقامة شبه القصة القصيرة، تدور حول بطل وهمي، يحكي أخباره برواية وهمية، وكلها تدور حول الخداع والاحتيال والتمويه، وعدم طرح إشكال الظاهر والباطن، بالإضافة إلى ذلك، فهي ميدان لإظهار البراعة في التخلص من مشاكل الحياة ومآزقها بطرق ملتوية، مع إبراز المقدرة اللغوية والأدبية. كل ذلك من أجل ضمان السيطرة على "الواقف". يذكر ابن الزيات :"كان حسن الموعظة، طيب النغمة دائم العبرة. وكان مجلسه كهفا للمريدين. وأهل (الخير) يأوون إليه وكان إذا أنشد بحسن صوته بديع الشعر شاق وراق وأثار كامن الأشواق. وإذا نص صحيح الخبر لم يبق ولم يذر وكان وعظه بجامع القصر في أيام الجمع ... فطوي بموته بساط التذكير وأوحشت عرصات التخويف والتحذير"([48]).

خاتمة:

من خلال ما سبق نستطيع القول بأن النصوص الزياتية، لم تأخذ طابعها النقدي إلا بعد أن تم تثبيتها في المرحلة التدوينية على يد ابن الزيات، والذي قام بمعيرتها وانتقاء العيون منها، وتقديمها "للواقف"، على شكل حكائي، ذي صفة أدبية أصيلة، تنم عن لغة وخيال وموقع هذا الرجل، داخل الثقافة والحضارة التي ينتمي إليها.

إن ابن الزيات بفكره الثاقب، وتفتح بصيرته، وكثرة تطوافه في البلاد شرقا وغربا، ولقاءاته المتكررة بالعلماء وأصحاب الرأي، تكون لديه فكر يعتد به، ويستأهل النظر فيه، بل يستأهل الدراسة المستفيضة الواعية. وذلك حتى يتمكن "الواقف" من اكتشاف أديب وعالم صوفي وناقد فحل بكل المقاييس العلمية، كابن الزيات. فلكم الحكم له أو عليه من منطلق هذه الدراسة، الذي اعتمدت فيها تقصي ومساءلة نصوص "التشوف" الأدبية والنقدية.

إن المعجم الشامل الذي نطمح في وجوده ذات يوم، لا يمكن أن يكون سوى نتيجة لبحوث جزئية مثل هذه، تتوخى البحث عن نظرية مغربية للأجناس الأدبية، والتخلص من عُقدها الثلاث الملازمة لها في عملية التفكير، ونقصد دون شك، عقدة الغرب، وعقدة الأندلس، وعقدة المشرق، فتراثنا هويتنا، وفكر متجدد، وليس إرثا جامدا كما يتوهم المتوهم.

وأُجمل القول السابق، فيما يلي:

1- إن كتب التراث "الصوفي" تُخزن لغة نقدية غنية، لو تكاثفت الجهود في ضبطها لساهمت في بناء نظرية نقدية أصيلة.

2- ما بين مصطلحات ومعاجم "التشوف" تشابك وتبادل للدلالة، وهذا يدل على معيرتها وانتقائيتها، كما

---

[48] نفسه ص: 439- 440.

تؤكد على الدور الذي تلعبه هذه الأخيرة في بلورة تلك اللغة النقدية.

3- المُصطلح أداة فكرية فضلا عن كونه أداة إجرائية.

إنه ومنذ ما ينيف عن عشرين سنة، صدر للدكتور جعفر ابن الحاج السلمي، مقال في مجلة "المناهل"، ينادي فيه بضرورة توظيف كتب التراث، وما تتضمنه من لغة علمية واصفة للنص الأدبي"، في سبيل تطوير معجم عربي مغربي معاصر، يواكب تطور نظرية الأجناس الأدبية والبحث النقدي المعاصر. لكن للأسف ومنذ ذلك الحين، لا تزال الحاجة ماسة إلى تحقيق التراكم في الدراسات والأبحاث المزكية لهذا الطرح، سواء من الأكاديميين أو من عامة المثقفين. فتجاهلنا للمصطلح النقدي (التراث الصوفي خاصة)، عملية اغتيالية للذات والهوية المغربية "العربية"، وموقف انهزامي لا يبرره إطلاقا أي تبرير، ولعل هذه الدراسة هي دعوة متجددة لإدماج النصوص المغربية المُهملة ضمن نظرية الأدب، ومقاربتها وفق هذا التصور.

المصادر والمراجع:

- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، (471هـ)ن تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، 1412هـ - 1991م.
- التشوف، إلى رجال التصوف، وأخبار ابي العباس السبتي، لإبن الزيات التادلي، (628هـ)، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة نصوص ووثائق 1، 1404 هـ - 1984م.
- الفتوحات المكية، لمحيي الدين ابن عربي (638هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- دينامية النص: تنظير وإنجاز، لمحمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الرباط، 1411 هـ/1990م.
- عجائبية النثر الحكائي، أدب المعراج والمناقب، للؤي علي خليل، دار التكوين، دمشق، 1428 هـ/ 2007م.
- عمدة الراوين، في تاريخ تطاوين، لأبي العباس أحمد الرهوني، (1373هـ)، تحقيق أ. د. جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، سلسلة تراث، رقم 6، تطوان، 1424 هـ/2003م.
- فصول في نظرية الأدب المغربي والأسطورة، لجعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاوين أسمير، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 1430 هـ/ 2009م.
- لسان العرب، لابن منظور، (711هـ)، دار الفكر، دار صادر، بيروت، 1414 هـ/ 1994م.
- لطائف الأسرار، لمحيي الدين ابن عربي (638هـ)، تحقيق أحمد زكي عطية، وطه سرور، دار الفكر العربي، بيروت، 1380هـ/1961م.
- اتجاهات الأدب الصوفي، بين الحلاج وابن عربي، لعلي الخطيب، دار المعارف، مصر، 1404هـ/ 1988م.